مصيبة أعظم من فقد امير المؤمنين . ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين .
فاقبل ياأمير المؤمنين من الله أفضل العطيّة . واحتسب عنده اعظم الزرية »(٦١٣)

القصص :

راجت في العصر العباسي القصص وكثر الاقبال عليها . وهي - وان كانت في نظر بعض الباحثين وحسب معاييرهم لاتدخل في باب القصة ؛ لأن الخصائص المطلوبة غير متكاملة فيها - تروى للتسلية والسمر وقضاء أوقات الفراغ الى جانب ما فيها من عبر وعظات ودروس اخلاقية . ولاسيما التي تتناول البطولة والفروسية قبل الاسلام وبعده .

وكانت بعض القصص تدور على السنة الطير والحيوان . كما هو الحال في كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله الى اللغة العربية عبدالله بن المقفع . وهو أثر نفيس يصور « البهائم والطير كائنات عاقلة مفكرة مدبرة تخضع لنوازع الغرائز وشهوات النفوس خضوعها الى الاعتبار بالاحداث والاحتكام الى الضمير والرغبة في التفلسف واستخلاص العظة أو المثل من المواقف والعلاقات »(٦١٤) ولسهل بن هارون كتابان على شاكلة كليلة ودمنة . الأول « ثعلة وعفراء » . وقد نقل الحُصري القيرواني الفقرات الآتية منه : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم . فانّ تقديم النافلة مع الابطاء عن الفريضة مظاهر عن وهن العقيدة . وتقصير الروية . ومضرُ بالتدبير . مخلُ بالاختيار . وليس في نفع محمدته عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة » وقال معقباً : « وكتابه هذا مملوء حكماً وعلماً »(٦١٥) والكتاب الثاني « النمر والثعلب » . وهو ممتع طريف الاسلوب . يدور على شخصيات ثلاث : الثعلب الحكيم . والذئب الجحود . والنمر الطاغي وقد وصل الينا منه نصوص كاملة .(٦١٦)

وكانت مجالس الوعظ آنذاك تميل الى القصص الديني . ولاسيما في تفسير بعض آيات القرآن الحكيم . وقد شاهد الجاحظ طرفاً من هذه المجالس وذكر أسماء مجموعة من قُصّاص العصر العباسي الاول . قال : « ومن القُصّاص موسى بن سيّار

---

(٦١٣) البيان والتبيين ٢ ، ١٩٢ .
(٦١٤) الحكاية الشعبية ص ٤١ .
(٦١٥) زهر الآداب ١ ، ٥٧٧
(٦١٦) العصر العباسي الاول ص ٥٢٠ . وينظر العدد الاول من حولية الجامعة التونسية سنة ١٩٦٤ .

الكلام طمعاً في نيل البلاغة . فإنَّ ذلك هو العيُّ الأكبر » وقوله لآخر : « عليك بما سَهُلَ من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السُّفلة » : وسار على هذا الدرب الكثيرون منهم عمرو بن مسْعدة . وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف ...

أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب التأنق واستيفاء المعنى باستقصاء أجزائه . وتقطيع الكلام الى فقر مرسلة ومسجعة . والاستطراد الى الأخبار والنوادر والتراجم والاكثار من الشواهد الشعرية ومأثور الكلام كما نرى ذلك في أسلوب الجاحظ الذي سنتناوله بالشرح والتوضيح في ترجمته .

الفنون النثرية :

الرسائل :

تطورت الفنون النثرية في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً . وقطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والتقدُّم بعد الانفتاح الكبير على أمم أخرى وتمازج الثقافات . وكما هو معروف فإنَّ الإنشاء رهين برقي الحياة وتطورها . وكانت الرسائل باشكالها المختلفة في مقدمة هذه الفنون ازدهاراً واتساعاً ؛ لأنها مرتبطة أشد الارتباط بحياة الناس جميعاً ولا سيما العاملين في مرافق الدولة والقائمين بشؤون السلطة . يقول الدكتور طه حسين : « ليس غريباً اذن أنْ تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني وطول القرن الثالث . وأن تكثر موضوعاته . وأن يزاحم الشعرَ حتى يسبقه . فقد كان النثر لا يكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخ ... أما في القرن الثاني وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ... وهذا طبيعي مفهوم لأنَّ النثر أيسر وأبسط . وهو أقدر وأوسع للمعاني . فيستطيع الكاتب اذا عرض لفن أو لمسألة أن يتناولها من جميع وجوهها دون أن يحول بينه وبين الاتجاه فيما يريدُ وَزْنٌ أو قافية . أو شرط من هذه الشروط التي كانت تُقيد الشعراء . ونجد هذا واضحاً عندما نقرأ الرسائل الكثيرة التي صدرت عن كُتاب القرن الثالث »(٥٩٤)

ويمكن تقسيم الرسائل آنذاك الى نوعين . الأول : الرسائل الديوانية أو ما يسمَّى بالمكاتبات الرسمية . وغالباً تكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد بأقلام المتخصصين بصنعة الكتابة . وهم كما قال الجاحظ : « لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة . والمعاني المنتخبة . وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة . والديباجة

---

(٥٩٣) النصّان في أمالي المرتضى ١ ، ١٣٧ .
(٥٩٤) من حديث الشعر والنثر ص ٥٥ .

ابن مروان على لسان أبيه الخليفة مروان بن [illegible] رسالة طويلة تقع في تسع وثلاثين صفحة (٥٩١) ولد بن قيس الشيباني الخارجي. وهي رسالة قصيرة بعث بها الى أهله وذويه وهو منهزم مع مروان بن محمد من بطش العباسيين. منها قوله: «كتبت اليكم والأيام تزيدنا منكم بُعداً. واليكم صبابة ووجداً فان تتم البلية الى أقصى مُدّتها. يكُن آخر العهدِ بكم وبنا. وان يلحقنا طفر جارح من أظفار من يليكم نرجع اليكم بذلّ الاسار والصغار. والذلُّ شرُّ دار، والأم جار. يئسين من روح الطمع وفسحة الرجاء نسأل الله الذي يُعزُّ مَن يشاء ويُذلّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفةً جامعةً في دار أمنةٍ. تجمعُ سلامةَ الأديان والأبدان. فانه ربُّ العالمين وأرحم الراحمين»(٥٩٢)

ولما قامت الدولة العباسية عظم شأن الكتابة وزاد الإقبال عليها بعد أن انفتح أمامها مجالات واسعة. وأصبح للكتّاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة. وكان للموهوبين منهم دور بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية.

كان الكتّابُ في العصر العباسي مثقفين ثقافة عالية ومزودين بصنوف المعرفة. تراهم يحفظون القرآن الكريم وشيئاً كبيراً من الحديث النبوي وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء اضافة الى تزودهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الأمم الأخرى مباشرة أو بعد ترجمتها الى اللغة العربية.

لقد توسّعت الآفاق أمام الكتابة بعد أن احتضنت الدولة العباسية الأمة الاسلامية وتولّت رعايتهم وحمايتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرانية.. فنجد هناك كتابات في التفاويض. والتقاليد. والمبايعات. والعهود. والعقود. والتهاني. والتعازي الى جانب التواقيع. والخطب. والرسائل. والمنشورات. والوصايا. وهناك أيضاً كتابات اخوانية كالشفاعة. والعتاب. والشكوى. والاعتذار. واستنجاز الحوائج.. وكتابات في أغراض تأديبية بأسلوب القصص أو السِّيَر على ألسنة الحيوان.

وقد سلك الكتّاب آنذاك أسلوبين في كتاباتهم. الأول الأسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الألفاظ بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح والجلاء. ورائد هذا الأسلوب ابن المقفع. وهاهو ذا يوصي أحد الكتّاب بقوله: «إياك والتتبع لحوشي

---

(٥٩١) صبح الأعشى ١٠، ١٩٥ - ٢٣٣.
(٥٩٢) الوزراء والكتاب ص ٤٦.